

الطبلاوي أفندي (قصة قصيرة)

منذ انبلاج فجر هذا اليوم وكبير الضباع يتأهب لخوض غمار نزهته الروتينية.. لكن هذه المرة سيزف على ظهر بعير مدجن.. سوف يلقي نظرة وداع.. في أكناف غاب موحش غير مأسوف عليه.. في قلب القرية المنسية.. أجل ثمة شمع بناء لمنتزه عتيدي.. معلمة مدفونة في طي الزمان الساخر.. تضحك أطلالها سمات العهد الزاهي.. توشح هامتها بقايا خيوط من ذهب تحكي عن ليالي العز البائدة.. كان المنتزه، قبل أن يقلب له الدهر ظهر المجن، روضة غناء مشعة.. مقصدا لعشاق النور، وقبله لاقتناء مفاتيح الحياة.. وغادرت العنامل التي ظلت تلقن الصبية والغلمان أسرار الوجود وأصول النغم السرمدية.. انسحبت المنارات والفوانيس من الساحة بوشاح الشرف.. وحزم النواطير حقائبهم.. وبدا المنتزه مجرد غاب مهجور، مقطوع عن عروشه.. استوطنه اليوم والغربان واتخذوه معقلا لإدارة الشأن العام. وخدامه لفيف من الكائنات المسالمة المعطاء.. ثلة من أفراس وحملان.. اقتضت الحاجة بأن يسألوا الكلاً في أحراشه.. يسهرون بأمانة على النسل من أصلابهم، يلقحونهم جرعت من نور يطهر الجوارح ويفتح البصائر.. ورغم أنف الزمان تعايش الحملان و الضباع وصمدت الأفراس في وجه الرعاع.. على أرض نبتها طلع وشوك.. تحت ثراها الجاف ترقد البراكين وتغفو الأलगام.. انتشرت جحافل الجراد.. أرسى الدخيل في الأرض قواعده.. وطوعها بمحراث الهرطقة والغباء.. عربد واستعر جنونه.. اختلط الحابل بالنابل.. استهترت الضباع وكشرت عن نابها الخنزير.. وجمحت الأفراس في وجه الأنواء والأعصير. ازداد الوضع فداحة من إنزال كبير الضباع، حضرة الطبلاوي أفندي، قائما بمهام الغلب، وسائسا لشأن أهله.. والمحير في أمر السدنة وأرباب الغلب أن ينتقوا لمثل هذه المهام صفوة من السباع المغشوشة والضباع المتمرس في العض غدرا، وإن كان حظها من البلادة والغباء أقوى وأوفر.. كذلك هش الحظ في وجهه.. ألقى بمظلة السدنة جثة متحركة في حجم برميل.. رأس أشيب مجوف يضاهاي كرة قدم رخيصة كتلك التي يتلهى بها الصبيان.. بطن ليس في جوفه غير العجين.. كزاز، همز، لمز.. دائم السخرية من أرناب الغلب وجحوشه.. كتلة من اللحم نكل بها الرعب والفرع إلى أقصى الحدود.. لا شيء يوجع الطبلاوي ويثير أحشاه سوى أشباح السدنة، أو نكرهم على طرف اللسان.. وبالأحرى أن يسمع بحلول وفد منهم!

نزل قيدوم الضباع، أول الأمر، بقلنسوة يهودي وديع.. وجد ضالته في بني جلده ودم نسله.. فؤاد الخنثاوي، شبل الضباع المدلل.. وهنية ضبوع المشهورة في الرعية بأم عسير.. شمطاء، عجفاء.. نضب منها الصدر واشتعل

الرأس شيبا.. لم يبق في هنية من باق سوى عين زجاجية لا تطرف ولسان سليل
لا يكل ولا يجف.. خادمان وفيان على ظهريهما يحمل، و بأعينهما يرى الأفراس
تخترق عيون الإبر.. والحملان تغزو غابة النمر.. مصادر مياه ملوثة تعرف من
خلالها على مكامن الضر في الأوكار والكهوف.. تحسس ما يرقد تحت الثرى من
الألغام والبراكين.. ما عليه إلا أن... وإلا.. ف.. فما أبشع المطرق إذ تصوبها
السواعد المأجورة! وما أخبث المناشير الجاهزة للاجتثاث! فما لديك من حيلة
سوى أن ترفع راية الخضوع وتؤدي فروض الطاعة.. حسنا.. هيا أقبلوا.. لكم
النصيب الأوفر في غلة الغلب - معاشر الضباع والذئب - أغمض الجفن يا كبير
الضباع.. در الجرذان تهتك الحجب.. تعبت حيثما اتفق.. اترك الأجراء تبحث عن
بقايا الجيف في مقابر الغلب.. شد على أذنيك بقبضة الكف حتى لا تنزعج من
نعيق الغربان.. حتى لا تمسي فريسة السباع والعقبان.. وما أضناه من نحيب
ضجت منه أفئدة الحملان وقاومه جهابذة الأفراس.. فيا ويح من أشارت إليه
أصابع هنية والخنثاوي ولو بالخير.. الطبلاوي واتفق من شهادة البغل على
"حسن السيرة" لدى مسئول الغلب.. علمته التجارب أن يفعل فعل النعامة،
فغطس رأسه في الرمل، ورفع مؤخرته المنتفخة تقصف بالبرود..

وحان موعد آخر نزهة في أرجاء الغلب.. وزف الطبلاوي على ظهر الجمل
الذي تولت أم عسير الإمساك بزمامه.. ومن الخلف فواد الخنثاوي يهش على
مؤخرة الجمل محفرا إياه على السير.. ومبارك الغياط يعزف على الغيطة..
يضحك ملء شذقيه، من حين لآخر، ضحكة حربائية بغیضة فيبدو ملوما
مشئوما.. لئن امتطى الطبلاوي اليوم هذا الجمل فكأنما حمله سائر البغل
والحمير.. وهذه فريضة جبلوا على أن يقدروها حق قدرها.. أحط به الرماة
مشاة وركبانا.. وتدجج البغل بعنادهم ومسروقهم من الأسلحة.. عبدوا الطريق
وزينوها بالأعلام والفوانيس احتفاء بنزول كبير الضباع من كوكب الصم البكم،
وانتشاء في ذات الوقت بأقول نجمه.. تسلى الطبلاوي وتملى.. وفاضت دموع
العين منه تأثرا شادا.. انتزعه من ميعة الانتشاء قدوم الأرنب البواب يحمل جديد
الأخبار.. تمسك السلطان المخلوع بذروة الجمل.. لم يطمئن خاطره.. ألحت عليه
نوبة الرعب واستبد به الذهول، فأنزله الحاشية من على ظهر البعير هلوعا
جزوعا.. اختزل خطوات المرسول فهرع إليه متعثرا.. مرتعد الفرائص
يستقصي.. خير إن شاء الله؟

وفي ألب يقتضيه وضعه ككادح بسيط، رد الأرنب:

- ممثل السدنة يرغب في مقابلتكم..

وشق السكون دوي الرعد يزمجر من مؤخرة الطبلابي.. فزاد حالة الترقب والفرع تأججا.. انطلق لاهثا مصفر الوجه.. وبجنبه الخنثاوي يزفر من ربو، وخلفهما تعدو أم عسير وهي تسعل من علة السل.. ما يزال الطبلابي يهرول مجهدا ركبتيه المنتفختين.. شيء ما يثيره فتراه يختلس النظر بطرف عينه إلى اليمين.. هالته أشباح سوداء كأنما تفتفي أثر قدميه.. همس ولسانه يتعثر من عي.. إنهم خلفنا!!! لا تلتفتوا إلى الوراء!.. فطن الخنثاوي للهاجس المتمكن من نفس الثور العليل.. وجعل يحزر نسبيا ولي نعمته من هول الضائقة.. لا تهب شيئا يا سيدي.. ليس من شيء يدعو للحيرة سوى خيالنا وظلنا يعدو وراءنا.. انظر.. شعر الفيل الضرير بإحراج ودارى ورطته بضحكة بليدة.. واصل الهرولة فلاح أمام مركز القيادة خلق يرابطون هناك كالمعتصمين.. جف الريق بحلقه وهو يردد بلكنة بنيسة في غير شعور.. خير إن شاء الله... وفقد الطبلابي ومن معه السيطرة على فرامل المؤخرات.. ولعلع الرعد مدويا من تحت ما جمعت عليه ثيابهم.. ولم ينقطع صوت البارود من خلف الطبلابي إلى أن أشرف على مركز قيادته.. تتطاير من سحنته شرارة الجزع والارتباك.. يعلو بطنه وينخفض من زفير كحشرجة الموت.. وقف يسترجع أنفاسه بعدما استيقن من هوية الزائر.. ازدانت حيرته وتضاعف حرجه.. شيء غير عادي شغله عما سواه.. أباد معنوياته المنهارة سلفا.. لم يكن هنا غير ممثل أولياء الأرانب مصحوبا بوفد، جاءوا يودعونه على إثر انتهاء مهامه.. تقدم نحوهم مخففا الوطاء كمن يسير على فراش من بيض الدجاج.. ما باله يخطو جامعا فخذيه إلى حد الاحتكاك.. ورطة فظيعة ومأزق مشئوم.. ازداد الوضع تآزما إذ أخذت السوائل تنفث من تحت تلابيب الطبلابي روائح لا تضاهيها إلا تلك التي تملأ فضاءات المراحيض.. واعتذر عن استقبالهم اللحظة ريثما تنفرج "الأزمة القلبية" التي ألمت به.. تفهم الزوار موقف الطبلابي ونكصوا على أعقابهم في صمت جنائزي.. مطبقين بكفهم على الأنوف المنزعجة....

المج. القصصية "فرسان الجحيم"

قصة تادلة في 3 - 3 - 2006

محمد غلمي